وحي العالم الجديد

المصباح الأحمر

للأستاذ محمود الشرقاوى

هأنذا أعود إليك . أيها المصباح الأحمر !

أعود إليك يا مصباحي الأحمر ولكني إنسان جديد .

ها أنت ذا كما كنت . يسطع نورك على قرطاسي ويغمر وجهي وأشعر بدفئك الرقيق يلمس جبيني في برد هذا الليل .

هذا هو الليل الساكن والدهر يحبو إلى عام جديد . وهذا نورك في غرفتي وبهجة لونك ، هذا كل شيء كما كان ، ولكني أنا إنسان جديد .

إني أكاد أشعر منك بالحياة يا مصباحي الأحمر ويخيل لي أنك تهمس وأنك تناجي وتذكر ، لا بل إنك تنبض وتخفق أو تكاد تنطق .

إني أحس ما تريد أن تهمس وأن تقول ، وإني أناجيك به وحدك وقد سكن الليل كأنما الليل وظلامه قد سكنا إلى النوم كما نام السعداء من الناس ؛ لم يبق سواك وسواي يقظان .

لا تسلني أيها المصباح الأحمر فسأحدثك ، وحديثي لك وحدك . لم يبق من يستمع حديثي ويصغي . لقد كنت منذ سنين شاهدي وسميري حين أكتب إلى من أعزهم ، وكنت تبهج مكاني ويغمر جبيني دفئك في برد هذا الليل ، كما يغمر قلبي ويشمل كياني الفرح الشامل السعيد حين أكتب لمن أحب . وحين يغمر قلبي ويغمر كياني ذلك الفرح الهادىء البهيج والنشوة التي تكاد تحملني فأخف معها وأنا أتلو رسائل من أحب، أسترجعها وأتلوها وأقف عند كل حرف فيها أستوحيه وأشعر منه بالسعادة وباللذة لا تساوى عندي الدنيا كلها رسالةً منها .

كنتَ شاهدي وسميري أكاد أحسّ فرحتك معي وبهجة نورك من بهجتي ومن نور قلبي ، والآن أنت وحدك الذي أخاطب وأنت الشاهد والغائب ؛ فقد ذهب العزيزان ولم يبق لي سواك مَن يصغي .

لا تسلني أيها المصباح الأحمر عن رسائل الثلاثاء من كل أسبوع ، ولا عن رسائل الأحد من كل أسبوعين ، ولا عن رسائل الغائب البعيد من وراء البحار

إنك تعرف وتذكر من أمسياتي ومن ليالي هذه الساعات الطويلة يتبع بعضها بعضاً وأنت تفيض بالدفء على جبيني وبالنور على وجهي وقرطاسي وأنا مستغرق كما يستغرق الصوفي غيبوبة السعادة والمناجاة والتوجه ، وهذه السطور والكلمات تلتوي وتنحدر ولا أشعر كيف تكتب ولا كيف يجري بها قلمي ، ولكني أعرف كيف يمتلىء بها كياني وكيف يفيض بها قلبي وكيف يتحرق بها دمي . والليل ساج وليس من ساهر سواك وسواي ، وأنا بالغيبوبة سعيد وبالليل سعيد

لقد ذهب العزيزان أيها المصباح فماذا أبقيا لقلبي ؟

فرحت بهما حيناً من الدهر وأحبتهما الدهر كله وأقمت منهما وبهما القصور الشوامخ من الرجاء ومن بهيج الأمل ، وكنت شاهدي وسميري حين أكتب إليهما في سكون الليل فأشد من عزم أحدهما وأهون له الأمور الصعاب أمنية بالرجاء والأمل ، وأضع حياتي وقوتي وكدح نهاري وسهد ليلي له وحده ، إنه أخي

وكنت شاهدي وسميري حين أكتب إلى أحدهما أقوّيه وأحييه وأبشّه ، وأرقب معه الحياة والصفو ، وأجعل ما بقي من قوتي ، وأجعل شبابي ومنامي ومقبل أيامي وهنيء عيشي بعد الكفاح المبذول والجهد الموصول ، أجعل هذا كله منه وله ؛ إنه حبيبي

كان سندي وكان محرابي وكان الواحة الهنيئة الحلوة المظلة في جدب أيامي ، فانهار منه سندي وانهدم المحراب على العابد ، وماخلته الواحة الهنيئة الحلوة كان السراب ، وكان بَرْدُ مائها العلقم ...

قال لي وقلت : إصبر . فصبرت ، حتى أفناني الصبر . وما صبر هو

أنت تعرف أيها المصباح الأحمر ، إنهما كانا أخي وحبيبي .

أما أحدهما فقد خبطه الموت عشواء ، وأما الآخر فقد خبطته الحياة ، وللحياة خبط أشد مما يخبط الموت

لم أعد أكتب على ضوئك ودفئك أيها المصباح الأحمر رسائل الثلاثاء ، ولا رسائل الأحد ، ولا أكتب للغائب البعيد .

الذين أحببتهم ورجوتهم ، والذين أناجيهم وأريدهم ، وأناديهم وأفتقدهم ، والذين قضيت عمري كله أرتقب قربهم ذهبوا لا يعودون ، أحدهما بين التراب ، والآخر أبعد من رفيع السحاب

والذين لا أريدهم ولا أرجوهم ولا أفتقد بعدهم يعودون